قصة تاريخية :

القائد المفقود

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

[إلى الذين يحسبون أن المفاوضات السياسية والمداولات الدبلوماسية ستنقذ فلسطين من محنتها ...]

كانت آخر خفقة في السراج الذي ظل سبعة قرون يضيء أرجاء الدنيا ... فقد استطاع الملك فرناندو في غفلة من ملوك العرب بالأندلس أن يتخطف ملكهم الواسع قطعة قطعة ، وأن يطوح بهم من عرش الملك واحداً إثر واحد ، وكان في الجولة الأخيرة قد استولى على وادي آش والمرية وبازة وغيرها من الأقاليم ، ثم أرسل بجيوشه الجرارة للاستيلاء على غرناطة وكانت هي كل ما بقي للعرب من ذلك المجد الباذخ الذي بناه آباؤهم بالشجاعة والسيف ، فأضاعوه هم بالجبن والخوف ..

واجتاحت تلك الجيوش الجرارة في يوم وليلة أواضي غرناطة واستولت على مشارفها ، ثم وقفت بأبواب المدينة العظيمة فطوقتها من كل جانب وضربت عليها حصاراً خانقاً حتى تسلم أو تموت جوعاً ، وكان يتولى الدفاع عن المدينة القائد العربي العظيم موسى ابن أبي الخازن ، فلم يهن ولم يجزع أمام تلك القوة الساحقة ، بل وقف يحشد كل ما يملك من شجاعة وحكمة وحيلة لذلك الموقف الرهيب ، فوزع قوات الدفاع على أسوار المدينة ، وجند الشبان الفدائيين للتسلل بين ثغرات الحصار وجلب المؤن للسكان ، ووضع نظاماً لتوزيع الطعام حتى يستطيع السكان أن يثبتوا أطول ما يمكن من الزمن . وكانت لا تفتر لهذا القائد المجاهد عزيمة ، فكان لا يرى في الليل وفي النهار إلا واقفاً يشد من عزائم جيشه وبني قومه . أو مشتبكاً مع الأعداء في مناشات عنيفة تقطع فيها السيوف وتجرى الدماء . .

طال الأمر بهذه الحال الرهيبة ، وطالت غرناطة ترزح تحت الحصار الخانق سبعة أشهر حتى نفد منها الطعام ، وأخذ الجوع يتهدد الأهالي بالفناء الساحق والدمار الماحق ، ورأى أبو عبدالله الملك أنه لا أمل في النصر ، وأنه ليس في طاقة السكان أن يتحملوا أكثر مما احتملوا ، فجمع الوزراء والقواد وأهل الشورى وأخذوا يدبرون للخروج من هذه الشدة ، فأجمعوا على أن الأمر أصبح لا يطاق ، وأن التمادي في الدفاع لا يجدي بعد أن أخذ السكان يتساقطون إعياء وجوعاً ، وأن الحكمة تقضي بالتماس طريق آخر للخروج من هذا الكرب ، ثم اتفقوا على أن خير الطرق في ذلك هي أن يفاوضوا الملك فرناندو على وضع يحتمل وشروط للصلح يمكن أداؤها . .

فانتفض القائد موسى في مكانه ونهض قائلا : ما هذا الذي أنتم فيه أيها القوم ؟ ! وما هذا الرأي الذي ترون ! ! أجل ! إن الجوع يصفنا بنابه الأرزق ، وإنه يودي بفلذات أكبادنا ، ولكن في شرعة الكرامة لا يزال لدينا الكثير ! إننا لم نأكل القطط والكلاب والعشب والحطب بعد ، وإن الجوع في أسوأ حال أشرف وأكرم من الاستعباد على أي حال ، إن الحر يحتمل أن يرى أطفاله وعشيرته يموتون جوعاً ، وأن يواريهم التراب بيده ثم لا يذرف عليهم دمعة واحدة ، ولكنه لا يحتمل أبداً أن يرى أبناءه وعشيرته أرقاء للغاصبين ، وأن يرى زوجاته وبناته نهباً للفاتحين ، وأن يرى نفسه غريباً طريداً في مرتع طفولته وصباه وموطن شبابه وشيخوخته ، فاللهم لا تدمني حتى أعاني تلك الحال .

فعاد القوم يتشاورون ، ولكنهم عادوا فأجمعوا على ما كانوا فيه ، وقال قائلهم : إننا إذا دخلنا في مفاوضة مع الملك فرناندو وجرينا معه على طريقة التفاهم والمودة فإنه لا يشق علينا ، لأننا أصبحنا بازئه لا نملك حولا ولا قوة ، وإنما حاجته إلى الملك لا إلى ظلم الناس والقسوة عليهم . فلنرسل إليه رسولا يفاوضه على شروط التسليم ولننظر ما يأتي به الرسول ..

قال موسى : كيف تقولون إننا لا نملك حولا ولا قوة ؟ ! كلا : إننا نملك الموت في سبيل الشرف ، وما هذه المفاوضة التي تريدونها إلا إظهار للضعف ودعوة إلى التخاذل وإعلان للتسليم والاستسلام وثقوا أنكم لن تسمعوا في هذه المفاوضة من الملك فرناندو إلا كلمة القوي للضعيف ..

ضاعت كلمات القائد موسى صرخة فى واد ونفخة فى رماد ، وما كان يستطيع أن يحرك النفوس الهامدة وأن ينفخ الحياة فى الأموات ، فتركه القوم لحماسته ، وانصرفوا إلى ما اتفقوا عليه من الرأى ، فأرسلوا بالوزير أبى القاسم عبد الملك إلى مفاوضة الملك فرنانادو فى الصلح والتفاهم معه على الشروط التى يريدها ، فما علم الملك بمقدمه لهذه الغاية حتى رحب به أجمل ترحيب وأحاطه بالحفاوة والإكرام، ووكل إلى وزيره أمر المفاوضة مع الوزير العربى وكان أن أملى القوى شروطه على الضعيف .. ثم عاد أبو القاسم يحمل إلى قومه معاهدة كثيرة البنود طويلة الشروح والتفاصيل، تنص فى أول بنودها على تسليم غرناطة وإطلاق الأسرى الأسبان المعتقلين فيها ، وأن يقسم الملك أبو عبد الله ورجال دولته يمين الطاعة والاخلاص للملك فرنانادو ، وأن يقطع له بعض الأراضى ليقضى فيها بقية حياته ، وأن يؤمن المسلمون على أموالهم وعباداتهم وعاداتهم ، وألا يؤخذ منهم من الأموال والضرائب إلا ما كانوا يدفعونه للوكهم ، وإمهال الملك أبى عبد الله للتفكير فى قبول هذه الشروط ستين يوماً تبتدىء من تاريخ تحرير هذه المعاهدة فى الخامس من نوفمبر سنة ١٤٩١م الموافق الثانى والعشرين من المحرم سنة ٨٩٧ هـ

رجع الوزير أبو القاسم يحمل هذه المعاهدة إلى قومه ، فدعا الملك أبو عبد الله الوزراء والرؤساء والفقهاء وأهل الرأى ليشاورهم فيها ، فلما وقفوا على مضمونها غامت الدنيا فى وجوههم وأجهشوا بالبكاء ، ورأوا أنه لا حيلة لهم إلا التسليم والأذعان ، إلا القائد موسى ابن أبى الخازن فإنه صاح فيهم قائلا : « وآسفاه ، أنتم تبكون أيها الرجال ، إذن فالويل للنساء والأطفال ، لقد حذرتكم فما سمعتم . وأنذرتكم فما أصغيتم، وإنكم لتسمعون من الملك فرنانادو كلمة القوى للضعيف ، وهى كلمة لا يتبدل مدلولها فى إرادة الأقوياء ، ولا يتغير أثرها فى إذعان الضعفاء ، وها أنتم أولاء أيها السادة ترون أنفسكم وقد أصبحتم بهذا الأذعان أرقاء أذلاء ، ففى الغد تبصرون الناصبين يدخلون بيوتكم ، ويستبيحون حرماتكم، ويعطلون شعائركم ، ويتخطفون أقواتكم ، ويتحكمون فى رقابكم ، فلماذا ترهبون الموت والموت أهون مما سيصيبكم ، وأشرف مما سيحل بكم ، إن من الشرف أن نواجه الموت اختياراً قبل أن نرغم عليه إرغاماً ، وإن من الكرامة أن ندافع عن حتى آخر قطرة من دمائنا وحتى نبيد عن آخرنا ...

***

إذا ما أفعم اليأس النفوس صمت الآذان وماتت العزائم ... وهكذا ضاع كلام القائد موسى هباء فلم يحرك من القوم ساكناً، فأذعنوا لما فرضه عليهم الملك فرنانادو من الشروط ، وواقفهم الملك أبو عبد الله على ذلك إيثاراً للسلامة فى ملك طرد منه بعد قليل شر طردة .. أما القائد موسى ابن أبى الخازن فإنه أبى أن يستسلم وأن يذعن . . . فقصد من فوره إلى داره وتقلد سلاحه ولبس دروعه وامتطى جواده ثم خرج ليدافع أولئك الغزاة الذين تقدموا ليكتبوا آخر سطر فى تاريخ العرب بالأندلس ..

ولم يعرف أحد ماذا كان مصيره ولا كيف كانت نهايته . . وما يزال التاريخ يبحث إلى اليوم عن ذلك القائد المفقود ..

محمد فهمى عبد اللطيف

ظهر حديثاً :

ابراهـــام لنكولن

للأستاذ محمود الخفيف

الثمن ٣٥ قرشاً

سكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

نشر الاعلانات فى الرسائل البرقية

أن الاعلان فى الرسائل البرقية المتداولة بين سكان القطر المصرى بأجمعه هو دعاية عامة واسعة النطاق قد هيأتها المصلحة للممعن الذى يرمى الى رواج اعماله وللتاجر الذى يبغى التوسع فى تجارته

وقد راعت المصلحة أن تكون أجور النشر فى هذه الرسائل زهيدة وفى متناول الجمهور فجعلت كل مائة الف اعلان بثلاثين جنيهاً مصرياً وكل ربع مليون بسبعين جنيهاً وكل نصف مليون بمائة وعشرين جنيهاً فضلاً عن تخفيض معين فى المائة إذ بلغ المراد نشره مليوناً أو أكثر من الاعلانات .

إنتهزوا هذه الفرصة ولايفوتكم أن تحجزوا من الآن القدر اللازم لكم من هذه الرسائل .

ولزيادة الايضاح اتصلوا :—

بقسم النشر والاعلانات

بالادارة العامة بمحطة مصر

مطبعة الرسالة